

الفصل الثامن

المؤرخون المتأخرون

{ أبو شجاع الروذبارى }

يبدو أن التأليف التاريخى بلغ أوجه فى كتاب مسكويه للأسباب التى قدمت .
وضم المرحوم السيد امدروز Amedroz إلى الجزء الذى أدخله فيما بعد ابن
الأثير فى تاريخه العام من كتابه:

- (١) تكملة أبى شجاع ، وزير المقتدى ، ٤٨١ - ٤٨٤ ، المتوفى عام ٥٠٣ هـ .
- (٢) تكملة تاريخ ثابت بن سنان لهلال الصابىء ، التى لا يوجد إلا قطعة منها .

ويبين المدون عن أبى شجاع الروذبارى أنه كان متدينا وورعا : ويدعم
تاريخه هاتين الصفتين . وهو يقينا أقل من مسكويه من الناحية الفكرية ، أضف إلى
ذلك أنه يجيد عن طريقه ليمدح السلاجقة ، مقابلا أعمالهم بأعمال البويهيين . ولا
يكشف عن أى شىء شبيه بالمعرفة الخاصة التى حصل عليها مسكويه بالإدارة من
اتصاله بابن العميد والمهلبى ، وبعنايته بها .

{ هلال الصابي }

وصدّرت طبعة امدرود الاولى تاريخ هلال بالقطعة الباقية من كتابه عن الوزراء ، التي تكاد تقتصر على معالجة وزراء المقتدر : ابن الفرات ، وعلى بن عيسى ، وابن مقلة . ونجد مصدر كثير من قصصه في « النشوار » ، الذي وصفناه أمس . وذكر التنوخي مباشرة أحيانا ، وفي أحيان أخرى يذكر من روى عنهم التنوخي . ولما كان التنوخي يقول « حدثني » على حين يقول هلال « حدث » . فلعله كان في جميع الحالات يروي عن التنوخي ، الذي عاصر الراوى ، على حين كان هلال متأخرا ، إذ إنه من الجيل الثالث . وكان على شيء من المعرفة الوثيقة التي نجدها عند مسكويه بالأعمال ، بحكم مركزه كاتب داواوين .

{ الخطيب البغدادي }

وهناك مؤلفان يجعلهما عملهما الغريب بارزين في القرنين الخامس والسادس ، كل في قرنه . وهما الخطيب البغدادي وابن عساكر الدمشقي . وقد ولد الأول في ٣٩٢ هـ ، وتوفى في ٤٦٣ هـ . ويعتبره ياقوت من ختم به ديوان المحدثين ، ولكن يجب ألا نفهم هذه العبارة فهما حرفيا متشددًا . وقد اتبع المثل الذي ضربه الطبري وغيره الذين أكثروا من الرحلات وأبعدوا بحثا وراء المعرفة : فذهبت به رحلاته إلى فارس ، والشام ، والجزيرة . وذكر أنه لما حج ، شرب من ماء زمزم ثلاث شربات ، وسأل الله عز وجل ثلاث حاجات ، فالحاجة الاولى أن يحدث بتاريخ بغداد ، والثانية أن يملى الحديث بجامع المنصور ، والثالثة أن يدفن إذا مات عند قبر بشر الحافي . وقد تحققت الرغبات الثلاث جميعا . وكانت أولها أيسرها :

فلما عاد إلى العاصمة بعد رحلاته ، حدث بتاريخ بغداد بها . ثم تحققت الثانية بعد ذلك . فقد وقع إليه جزء ، فيه سماع الخليفة القائم ، فسأل أن يؤذن له في قراءة الجزء . فقال الخليفة : هذا رجل كبير في الحديث ، فليس له على السماع منى حاجة ، ولعل له حاجة ، أراد أن يتوصل إليها بذلك ، فسلوه ما حاجته ؟ فسئل ، فقال : حاجتي أن يؤذن لي أن أملى بجامع المنصور . فتقدم الخليفة إلى نقيب النقباء بأن يؤذن له في ذلك .

وكانت الرغبة الثالثة أشقها في التحقق . فقد كان المكان الذي رغب الخطيب أن يدفن فيه قد حصل عليه رجل آخر ، حفر فيه قبراً لنفسه ، وكان يمضى إليه فيختم فيه القرآن . فلما سئل أن يدفن فيه الخطيب ، امتنع ، مينا أهميته عنده . فتقدم رجل له خطره لناقشته . قال : يا شيخ ، لو كان بشر في الاحياء ، ودخلت أنت والخطيب إليه ، أيكما كان يقعد إلى جنبه ، أنت أو الخطيب ؟ فقال : لا ، بل الخطيب . فقال له : كذا ينبغي أن يكون في حالة الموت ، فإنه أحق به منك . فطاب قلبه ، ورضى بأن يدفن الخطيب في ذلك الموضع ، فدفن فيه ، وتحققت بذلك أمنية الخطيب الثالثة .

ويروى تمثيلاً لدقة معلوماته أن بعض اليهود أظهر كتاباً ، وادعى أنه كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بإسقاط الجزية عن أهل خيبر ، وفيه شهادات الصحابة ، وأنه خط على بن أبي طالب ، فعرضه رئيس الرؤساء على أبي بكر الخطيب ، فقال : هذا مزور ٠٠٠ في الكتاب شهادة معاوية بن أبي سفيان ، ومعاوية أسلم يوم الفتح ، وخيبر كانت في سنة سبع ، وفيه شهادة سعد بن معاذ ، وكان قد مات يوم الخندق ، في سنة خمس . وكانت هذه المعرفة من الندوة بحيث تقدم رئيس الرؤساء إلى القصاص والوعاظ ، ألا يورد أحد حديثاً عن رسول الله

صلى الله عليه وسلم ، حتى يعرضه على أبي بكر الخطيب ، فما أمرهم بإيراده
أوردوه ، وما منعهم منه الغوه .

ويهمنا أن نلاحظ بين شيوخ الحديث الذين روى الخطيب عنهم سيدة - هي
كريمة بنت أحمد المروزي ، التي قرأ عليها صحيح البخاري في خمسة أيام ! ولعل
الكتاب كان معروفا معرفة تامة منهما كليهما ، ولكن المدة تبدو قصيرة قصرا
عجيبا حتى على هذا الفرض .

ويقال إن مصدر معارف الخطيب مكتبة جمعها من يسمى غيث بن علي
الصوري: خلف بعد موته عند أخته اثني عشر عدلا محزوما من الكتب . فلما خرج
الخطيب إلى الشام ، حصل من كتبه ما صنف منها كتبه ، وقدرها ٥٥ كتابا .
وكانت مجالسه في مساجد الشام كمسجد صور مزدحمة : ولكن الخطيب
قال : القعود في جامع المنصور مع نفر يسير أحب إلي من هذا : وواضح أن أهمية
العاصمة لم ينل منها ضعف الخلافة إلى حين نكبة المغول . وقد دخل بعض العلوية
مسجد صور، والخطيب يملئ طلبته ، وقدم له دنانير هدية من بعض المحتشمين .
فقال الخطيب: لا حاجة لي فيه . فقال العلوي : كأنك تستقله ، ونفض كفه على
سجادة الخطيب، وطرح الدنانير عليها . وقال : هذه ثلاث مئة دينار . فقام
الخطيب محمر الوجه ، وأخذ السجادة ، ونفض الدنانير على الأرض . وخرج من
المسجد . قال الراوي : ما أنسى عز خروج الخطيب ، وذل ذلك العلوي ، وهو
قاعد على الأرض ، يلتقط الدنانير من شقق الحصر ويجمعها . وهددت حياته في
قصة أخرى في دمشق على يد رافضي كان أميرا للبلدة . وقد سمح له صاحب

الشرطة المكلف بقتله أن يلتجئ إلى علوى قال للأمير : هذا رجل مشهور ، وإن قتلته ، قُتل به جماعة من الشيعة بالعراق وخربت المشاهد ، فأمر بإخراجه إلى صور .

ويشغل اخل الاول من ثبت كتبه تاريخ بغداد ، وهو معجم للتراحم بصفة رئيسية ، وإن صدر بوصف للمدينة . يلي ذلك قائمة كتب متصلة بدقائق علم الحديث ، بعضها في الدفاع عن الشافعي ، الذي صار الخطيب من أتباعه المتحمسين ، بعدما كان أولا من أتباع ابن حنبل . وبعضها الآخر ذو عناوين شبيهة بعناوين كتب الجاحظ ، كتاب البخلاء ، وكتاب الطفيلين ، وكتاب التنبيه والتوقيف على فضائل الخريف . . وكانت قوة ذاكرته مثار الاعجاب : ولكن بعض المنتقسين تمسكوا بأنه لم يكن يستطيع الاعتماد عليها في الاجابة على ما يقدم إليه من أسئلة وأنه كان دائما يحتاج إلى بعض الوقت لاعداد أجوبته .

{ ابن عساكر }

ويلصق باسم ابن عساكر على بن الحسن ، ٤٩٩ - ٥٧١ ، ثبت أكبر . وقد أكثر من الرحلات وأبعد كالخطيب بعد سماع شيوخ دمشق ؛ فقضى خمس سنوات في بغداد ، وغيرها في الحجاز ، وأصفهان ، ومرو ، وهراة ، والرقة ، والكوفة ؛ ومن شيوخه ١,٣٠٠ رجل ونيف وثمانون امرأة . وأعظم كتبه تاريخ دمشق ، الذي كان أولا في ٥٧٠ جزءا ثم جعله في ٨٠٠ : ويتدئ كتاريخ بغداد بوصف للمدينة ينتقل منه إلى معجم ألقبائي للرجال الذين عاشوا فيها أو اتصلوا بها . ووصف دمشق محل إخلالا منحيا للآمال ، وقد تفوق عليه كتاب طبوغرافى متأخر في يسر . أما معجم التراجم فعمل له مزاياه ، وقد أفاد منه ياقوت فائدة

كبيرة : وأخذ ابن عساكر نفسه الكثير من الخطيب . وهو ملئ إلى أبعد الحدود بالاسانيد وتكرير المادة الواحدة تبعاً « لطرقها » المختلفة : وهكذا يخصص مجلداً للخليفة الأول أبي بكر ، الذى يظن أنه زار تلك المدينة فى الأيام الأولى : ولكن المجلد لا يحتوى إلا على قليل من الأقوال المعزوة إلى هذا الخليفة ، وإنما تمتلئ الصفحات بالتكرير الذى لا نهاية له . وقد حذفت الاسانيد فى الطبعة التى شرع بعض العلماء يصدرونها فى دمشق ، فقل حجم الكتاب تبعاً لذلك .

وتضم القائمة الطويلة لكاتبه الأخرى ذكر بعض المواد التى تترجم حياته : معجماً فى اثني عشر جزءاً ، لمن سمع منه أو اجاز له رواية الأحاديث : ومجموعات من جميع الأصناف تعالج الجوانب المختلفة من الحديث ، وأسئلة فى علم الكلام ، وغيرها . والقائمة التى تبين أجزاء كل كتاب غاية فى الطول . وربما لم يكن كثير من الكتب غير مواد مجموعة : ولكن الأجزاء التى طبعت من التراجم فى تاريخ دمشق تدل على جهد عظيم فى جمع أسماء الرجال ، وترتيبهم على الألفباء ، وجمع الحقائق عنهم .

وقد رأينا أنه عنى عناية خاصة بالخليفة الأول . ودون ابنه أنه لما أملى فى فضائل الصديق سبعة مجالس ، ثم قطعها بإملاء مجالس فى ذم اليهود وتخليدهم فى النار ، جاء إليه صديق وقال له : رأيت الصديق فى النوم وهو راكب على راحلة ، فقلت : يا خليفة رسول الله ، قد أملى علينا الحافظ أبو القاسم سبعة مجالس فى فضائلك . فأشار إلى بأصابعه الأربع . فقال له والذى : قد بقى عندى مما خرجت ولم أمله أربعة مجالس . ويبدو أن الصديق لم يدون أية ملاحظات أبداها الطيف بهذا الصدد .

ويبدو أنه أفلح في الحصول على إعجاب العاصمة، بخلاف كثير من رجال الامصار الذين أخفقوا في ذلك ؛ فكان أحد زوار ثلاثة من دمشق تفوقوا على جميع من رأوه من شيوخ بغداد ، وكان هو أعظم الثلاثة . ومع ذلك يقال إنه لم يكسب إلا قليلا من المال من علمه . وقد أجاب ابنه ، عندما سئل : أى شيء فتح له ؟ وكيف بر الناس له ؟ قال : هو بعيد من هذا كله ، لم يشتغل منذ أربعين سنة إلا بالجمع والتصنيف والمطالعة والتسميع حتى في نزهه وخلواته . فقال السائل : الحمد لله ، هذا ثمرة العلم ، ألا إنا قد فتح لنا ما حصلنا به الدار والكتب وبناء المسجد ، ما يقرب من اثني عشر ألف دينار ، وطبيعي أن الخبر أدى إلى التعليق على قلة الفوائد التي تجلبها الابحاث الدينية والتاريخية . فكثير من الشعراء حصلوا على عشرة أضعاف ذلك المبلغ جائزة على قصيدة واحدة من قصائدهم .

وتعوقنا الحاجة إلى الرواة الاصيلين بشكل خطير ، في الحقبة التالية على الزمن الذي ينتهى عنده تاريخ هلال . ونحن نعرف أسماء المؤرخين ، ولكن كتبهم لم تخرج إلى الضوء بعد . وقد انتقل مركز الامور ، بعد ألوان الصراع بين فروع بني بويه التي يرويها أبو شجاع (لم يكن هو راويها الاصيل) وهلال ، من بغداد إلى شيراز ، واختار سلاطين السلاجقة الذين انتزعوا السلطة من البويهيين عواصم خاصة بهم . وواضح أن بغداد بقيت العاصمة الادبية لعدة أسباب ، ولكن مركز السلطة انتقل إلى مواضع أخرى ، وقطعت أوصال بلاد الخلافة الشرقية تقطيعا لا يرجي له اتصال . وعندما صار الخليفة حاكما مستقلا ثانية في القرن السادس ، كانت مملكته قطعة صغيرة من الامبراطورية التي كانت فسيحة الارحاء .

{ ابن الجوزى }

ولذلك سجلت الحقبة البويهية بعد بماء الدولة تسجيلاً محلاً جداً ، وليس
أيناً في اللغة العربية تاريخ مُرضٍ عن السلاجقة : وقد بقيت مقتطفات من كتاب
البنديارى عند عماد الدين الاصفهاني ، الذى يعنى بالاسلوب الجميل أكثر من
عنايته بالحقائق . والمؤرخ الذى بلغ بالتاريخ الإسلامى إلى سنة ٥٧٥ هـ ، هو
الواعظ أبو الفرج بن الجوزى (٥٠٨ - ٥٩٧ هـ) ، الذى يتحدث ابن جبير
الرحالة عن مواعظه في شغف . وقد رأى الضوء بعض ما ألف من كتب كثيرة :
أحدها عن مناقب عمر الثانى ، وآخر عن الأذكىاء ، وهو مجموعة من الاقاصيص
العجبية والمسلية ، تضم بعض القصص « البوليسية » . ولقى تاريخه ، « المنتظم »
وكان في اثني عشر مجلداً ، ما لقيه كثير من الكتب الكبيرة التى من هذا اللون ؛
تفرقت المجلدات ، وشقت أجزاء منفصلة طريقها إلى مكاتب مختلفة وتؤلف
الوفيات في هذا الكتاب جزءاً هاماً من حوادث كل سنة ، وقد أخذ هذا
الاسلوب ، الذى اتبعه ابن الاثير بدرجة معتدلة ، في الشيوخ التدريجي منذ ذلك
العهد : ويتخذ التاريخ صورة مشابهة لصورة السجل السنوى ، الذى يذكر فيه
موجز جد مختصر بالحوادث تتبعه قوائم بالوفيات ، التى تتضخم أحيانا فتصير
تراجم مطولة .

ويصدق قول جيون Gibbon إن المؤرخ العربى إما الحولى الجفاف
أو الخطيب المزوق الاسلوب بعد عهد مسكويه ، لا قبله . فلا يصدق على الطبرى
أو المسعودى ، أو مسكويه ، ويقرب من الصدق عند المؤرخين الذين تلوهم ،
ولكن المحتمل أنه قائم على المؤلفين المتأخرين الذين عرفهم جيون في الترجمات

اللاتينية ، وخاصة أبا الفدا ، الحولى الجاف ، وابن عربشاه ، الخطيب المزوق الاسلوب . فالمهمة التي وضعها المؤرخون أمامهم من الضخامة بحيث لم يدعوا لانفسهم وقتا كافيا إلا للاقتطاف من الكتب القديمة : أما البلاغيون فصبوا لانفسهم مهمة أكثر اعتدالا ، ولكن عنايتهم كانت موجهة إلى البحث عن العبارات المختارة ، والمترادفات التقليدية، وصور الحديث والسجع ، لا إلى فصل الحقائق المهمة عن غيرها وتوضيح تطور الاحداث .

ومن الطبيعي أنه يوجد في هذا المجال الفسيح من التواريخ العامة ، والخاصة بأسر ، أو أمصار ، أو بقع معينة ، التي لدينا ، خليط جد متنوع من جميع الخصائص التي يمكن أن تدخل الكتابة التاريخية من أى صنف : كالصحة ، والعدالة ، والتميز، والقدرة على اجتذاب انتباه القارئ والاحتفاظ بتشوقه . فإن لم يكن أحد هذه الكتب التي ترجمت إلى لغة أوروبية قد حصل على أى لون من الشيع في أوروبا ، فالسبب المحتمل في عدم ألفة الاوروبيين للأسماء والهيئات التي يعالجها أكثر منه في افتقارها إلى المزايا فيما عاجلته من أمور . ولذلك على الرغم من انتشار الروايات التي ألفها المرحوم جرجى زيدان في التاريخ الإسلامى ، في مصر وغيرها من الاقطار التي تتكلم العربية ، يتمسك الناشرون الانجليز بأن ترجماتها لن تباع ؛ لانعدام المشاعر التي تغرى على قراءتها .

{ ابن خلدون }

وقد يقال عن كثير من المؤرخين العرب إن كتبهم آلية ، إذ إنها إعادة لنصوص أو روايات كانت موجودة من قبل أو مختصرة منها ، أو إن كان خصص لها وقت ما ، فقد قضى هذا الوقت في المحسنات الادبية التي تختفى في الترجمة ، فهي

تؤثر في ظاهر الرواية لا في جوهرها . طبعي أنه يوجد استثناء مشهور من ذلك ، هو كتاب ابن خلدون ٧٣٢ - ٨٠٨ . حقا إن كتابه التاريخي ، الذي تعالج فيه الدويلات « الاسرات » منفصلة ، ولذلك يتكرر كثير من مادته ، ولكنه ذو قيمة فريدة في تسجيل الشئون الافريقية التي يحتفظ بها ، من الصنف الجاف : فهو رواية جد عارية للأحداث . ولكن المقدمة التي تشغل مجلدا كاملا لا مثيل لها في الأدب العربي وقل أمثالها في أى أدب وجد قبل اختراع الطباعة ، في أنها تضم أحكام المؤلف العامة التي خرج بها من دراسة السجلات التي تؤلف موضوع المجلدات التالية . والفكرة شبيهة شبا عجيبا بفكرة أرسطو ، الذى نظم أو تسبب في تنظيم أوصاف عدد كبير من المنظمات ، وألف رسالته العظيمة في السياسة من ملاحظاته على ما حدث . ويذهب كلاهما إلى وجود اطراد في السلوك الانسانى شبيه باطراد الطبيعة : وإن طرقا معينة من الحياة تجلب ميولا معينة : وكلاهما يتخلص ما أمكنه من جميع العناصر الاستثنائية ويستخرج نتائج من الوقائع العادية ، وتكرار الحوادث المتشابهة التي تبرر ما اتخذوه من قواعد عامة . ولا يرنو ابن خلدون إلى خلق دولة مثالية بخلاف أرسطو : وإنما هو صاحب رأى بأن الشئون البشرية تتبع مجرى طبيعيا . ولا يتوقع غير تكرر نفس مجموعة الاحداث التي أمدته دراساته التاريخية بالكثير من الامثلة عليها . وكانت النتيجة فلسفة للتاريخ ، بعيدة كل البعد عن أية فلسفة تطورية ، لأنها لا تنتظر تقدما متواصلا ؛ وإنما صورا محددة تحديدا صارما منه ، وتحمل بذور الدمار ؛ فأهل المدن المنهكون يجب أن يفسحوا المجال للمهاجرين الاقوياء من البدو في انتظام . وكان في الامكان التنبؤ بمصير شمال افريقية دون خطأ من النظريات التي شرحها ابن خلدون .

وليست المقدمة مقصورة على التأملات الفلسفية : بل يعطينا موجزا مفيدا بالموضوعات التي شغلت اهتمام المسلمين خارج السياسة، مينا أنه يرى أن وظيفة التاريخ تتعدى المادة التي منحت أصحاب الخوليات موضوعاتهم الرئيسية : ومنها الأدب ، والتطور الفقهي والعلمي ، وأصول الفرق، وما أشبه .

ويبدو أنه لم يوجد كاتب عربي آخر سار على نهج شبيه بنهج ابن خلدون . وقد بذلت محاولات لنقل نتائج المفكرين الاغريق في السياسة إلى لغة عربية واضحة: ولكن عدم معرفة المنظمات التي أقام عليها الاغريق دراستهم في الموضوع جعلت هذه المحاولات مخففة : فمن الواضح أن الكتاب كانوا يتحسون طريقهم في الظلام . ومن جهة أخرى وصل هؤلاء الذين يتصورون أن عملهم يقوم على اكتشاف الحقوق والواجبات المشتركة بين الحكام المطلقين والرعية إلى القليل مما لا يوجد على السطح .

{ المقریزی }

ولم يختلف المؤرخون العرب بعد ابن خلدون ، بل غنيت مصر خاصة بتواريخ الحقبين الايوبية والمملوكية : ومنها تواريخ شاملة ، تروى الاحداث سنة فسنة ، وتراجع أفراد من السلاطين ، لا يمكن تمييزها من التاريخ ، كما رأينا . ومنهم كاتب مشهور هو المقریزی ، الذي تتفوق خطته في وصف طبوغرافية القاهرة على أى وصف آخر لدينا في العربية لأية مدينة أخرى ؛ وهي منجم للآثار القديمة أيضا، وتكشف عن جهد في الاعداد والبحث أعظم مما كان لدى أولئك المؤلفين عادة من وقت لينفقوه على أعمالهم ، ولا يقل تاريخه لسلاطين المماليك ، الذي توجد ترجمته فرنسية له ، وإن لم يطبع الأصل بعد ، عن غيره من التواريخ ، ولكنه قلما

مرتفع عن المتوسط في أى جانب . وكثير من هذه التواريخ المصرية ، كتاريخ الاسلام للذهبي ، أقرب إلى أن تكون مجموعة أخرى من الوفيات منها إلى أن تكون تاريخا مطردا : ويجتهد المؤلفون في جمع الوفيات ، وترتيبها على الالفباء ، وتسجيل ما يعرفونه عنها .

{ ابن إياس }

يجب أن نستثنى من ذلك تاريخ مصر لابن إياس ، الذى يصل بالاجبار إلى الفتح العثمانى ، بعد تخطيط موجز للأحداث السابقة على عصر المماليك . ولغته من وجهة نظر النقاء غير فصحي ، إذ يستخدم المؤلف عددا كبيرا من الالفاظ التى لا تضمها المعاجم : ويحب من وقت لآخر الاستشهاد بأشعار عصره العامية . ويشغل ذكر التغييرات الواقعة بين الموظفين ، الذين كثروا في نظام الحكومة المملوكى ، وصارت لهم وظائفهم المحددة تحديدا واضحا ، يشغل جزءا كبيرا من الكتاب، ويكشف أسلوبه وطريقة تفكيره عن فردية أكثر مما يوجد عند معظم أصحاب الحوليات : وواضح أنه يجد متعة كبيرة في تدوين تكذيب الاحداث للأوهام الشعبية . وعلى الرغم من تأليف الجزء الاخير من كتابه في ظل السيادة العثمانية، لا يتردد في تسخيف الترك، والتعبير عن احتقاره إياهم . ولكن من الآثار الملحوظة للانتصار التركي انقطاع سلسلة التواريخ المصرية .

ولا يرقى ابن إياس إلى مرتبة مسكويه في تأليف المناظر الجديدة بالتصاوير المفزعة ، وتصوير الشخصيات التى يستطيع القارئ أن يتخيلها ، وتبقى واضحة في ذهنه : فأغلب تفاصيله أجف وأقل من أن تحقق هذا الغرض : ولكن التأثير الذى يتركه تأثير راوية أمين لحقائق مكتشفة ، ومكتشف واع ، يلاحظ ويدون الامور التى تدل معرفتها على قيمتها . ومن ثم فكتابه عظيم الفائدة ، في الاثار القديمة بمعنى

صور السلوك والعادات ، والملاحظات على الأعمال العامة والامور الاخرى التي يهملها المؤرخون غالبا .

ولدينا الآن عدة مجلدات مطبوعة من تاريخ مصر منذ الفتح الإسلامى إلى العصر المملوكى ، على نطاق واسع ، هو تاريخ أبى المحاسن بن تغرى بردى ، ومعنى اسم أبيه التركى « هبة الله » . وأسلوب هذا المؤلف أفصح من أسلوب ابن إياس .

انتهينا الآن من بحثنا فى الادب التاريخى العربى القديم : وقد اضطررنا إلى المرور على كثير من الكتب المهمة ، المنشورة وغير المنشورة ، صامتين : فقد اقتصرنا على المؤرخين الرئيسيين بينما كانت عملية تدوين الاحداث تتطور ، ووقفنا عندما مالت إلى أن تصبح آلية وذات طابع صارم غير متغير . وليس من المعقول أن نتوقع بين هذه الجمهرة من الأسماء عددا كبيرا من الروائع : فلم تخرج بلاد الإغريق إلا القليلين جدا ، لأن أحدا لا يعتبر التاريخ العام لديودور الصقلى من الروائع ، وكان عدد كبير من الكتب التى من هذا الصنف ، والتى بقيت أجزاء كبيرة من بعضها ، ولا نعرف من غيرها إلا قطعا، على حين ضاع فريق ثالث تماما، وكان ذا ميزة عادية، وإن كان لها قيمتها بسبب ما احتفظت به من معلومات. ولا يقل التأليف التاريخى العربى عن التأليف الإغريقى يقينا فى العدد والتنوع، وإن كان أمامه منطقة أوسع كثيرا ليتناولها : وإذا كان لا يكشف عن المقدرة الفكرية اللامعة إلا قليل من آثاره ، أو يرجح أن تحصل على أى انتشار واسع فى الترجمة ، لا بد أن نضع أمامنا عوضا عن ذلك الرغبة الشغوف التى أظهرها كثير من المؤرخين فى الكشف عن الحق انجرد وتدوينه ، وفى الامتناع عن تشويبهه بالتحيز أو الهوى .

